

الممكن والمستحيل في السيرة الذاتية :

قراءة في كتاب : "التبيان" للأمير عبد الله بن بلقين

على الرغم من التقدم الواضح الذي تحقق في مجال الدراسات التي تناولت النثر العربي القديم عموماً والنثر السيري منه على وجه الخصوص، خلال العقد المنصرم، فما زالت الحاجة ماسة إلى مزيد من الدراسة النوعية التي تضطلع بسبر أغوار كثير من الأجناس و النصوص النثرية والقراءة التالية في كتاب : "التبيان" هي محاولة متواضعة في هذا المجال.

١ - التبيان:

كتب الأمير عبد الله بن بلقين بن زيري، آخر ملوك بني زيري في غرناطة سيرته الذاتية هذه في المدة ما بين عامي ٤٨٧ - ٤٨٨هـ تقريباً، بعد أن نجاه المرابطون عن الحكم ونفوه إلى أغمات بالمغرب. وعلى الرغم من أن كتاب "التبيان" حُقق ونشر كاملاً قبل ست وأربعين سنة، وترجم حديثاً إلى الإنجليزية والإسبانية، إلا أنه - في اعتقادنا - لم يلق الاهتمام الذي يستحقه من النقاد والدارسين العرب، والسبب الرئيس في ذلك يعود - ربما - إلى أن السيرة الذاتية في

الدكتور
صالح بن
معيض
الغامدي*

• بكالوريوس آداب
وتربية ، جامعة
الملك سعود
(الرياض سابقاً)
عام ١٣٩٩هـ.

- ماجستير في
الآداب ، جامعة
إنديانا - أمريكا
١٤٠٤هـ.

- دكتورة في الآداب
العربي المقارن من
الجامعة نفسها .

- يعمل الآن أستاذاً
مشاركاً بقسم
اللغة العربية
وآدابها - جامعة
الملك سعود .

- رئيس قسم اللغة
العربية وآدابها -
جامعة الملك
سعود .

أدبنا العربي القديم، بل و الحديث أيضاً لم تكتسب حق المواطنة بعد، ولم يُعترف بها جنساً أدبياً جاداً في نقدنا العربي قديمه وحديثه لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها هنا، أما فيما يتعلق بإهمال هذه السيرة بالذات فأعتقد أن مصطلح "مذكرات" الذي وضعه ليفي بروفنسال، محققها الأول، في العنوان الرئيس "مذكرات الأمير عبد الله..." كان له أثر واضح في صرف اهتمام نقدة الأدب عن هذه السيرة، وذلك لما يوحي به هذا المصطلح من اقترابها من مجال التاريخ وابتعادها عن مجال الأدب، ومما يؤكد هذه النقطة أننا نجد أن المؤرخين العرب على وجه العموم والغربيين على وجه الخصوص قد استغلوا هذه السيرة استغلالاً كبيراً في دراساتهم التاريخية للأندلس. لكن قيمة "التبيان" الأدبية ظلت مهمة أو - في أحسن الأحوال - مهمشة. حقاً، لقد أشار إليها عدد من دارسي الأدب الذين تناولوا - على استحياء - فن السيرة الذاتية مثل شوقي ضيف وإحسان عباس، ويحيى عبد الدائم، وكاتب هذه السطور وغيرهم، لكن قيمة هذا الكتاب الأدبية لا تزال - في نظرنا غير مجلوة، فكتاب التبيان، بوصفه نصاً لـ "سير ذاتية"، فيه من التراث والعمق، بل والإشكاليات ما يتطلب كتابة دراسات جادة كثيرة حوله، وما سأسطره هنا ما هو إلا محاولة لدراسة بعض جوانب هذا العمل الأدبي المهم.

٢ - مذكرات أم سيرة ذاتية:

أشرنا إلى أن محقق "التبيان" قد وصفه بالمذكرات، فهل كان محقاً في ذلك؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغي علينا أن نقف قليلاً لنتبين الفرق بين السيرة الذاتية والمذكرات. فعلى الرغم من أن نقاد السيرة الذاتية - وجلهم من الغربيين مع الأسف - يعترفون بصعوبة التفريق القطعي والحاد بين الشكليين أحياناً، إلا أنهم

يضعون معياراً عاماً ومهماً في الوقت نفسه للتفريق بينهما . ففي السيرة الذاتية الصرفة يركز الكاتب على الذات بينما في المذكرات نجد أن اهتمام الكاتب وتركيزه ينصبان على الآخرين من حوله⁽¹⁾. وبناء على ذلك "قالتبيان" - في رأينا - أقرب إلى السيرة الذاتية منه إلى المذكرات، ووسمه بالمذكرات فيه مجانية للصواب، هذا مع إدراكنا أن السبب الذي حتم على محققه وسمه بالمذكرات ربما كان كون كاتبه رجلاً سياسياً.. ومعلوم أن المذكرات من أكثر الأشكال الأدبية التي يستخدمها رجال السياسة في كتابة تجاربهم السياسية. وكان الأولى بـبروفنسال أن يحافظ على العنوان الأصلي لهذا الكتاب وهو "التبيان"، ثم يضيف إليه عنواناً ثانوياً آخر مثل "مذكرات" أو "سير ذاتية" أو غيرهما، دون أن يفرض على قارئه شكلاً أدبياً معيناً بدون مبرر، وقد تدارك هذا الخلل مترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية (أمين طيبي) عندما وضع له العنوان التالي: The Tibyan: Memoirs of Abd Allah B. Bu-luggin Last Zirid Amir of Granada. والحقيقة أن قارئ هذه السيرة الذاتية يجد أن شخصية الكاتب هي المحور الرئيس لكل الأحداث التي تسرد فيها، حتى في أحداث الجزء الأول منها الذي يخصه الكاتب لتاريخ أسرته ونزوحها من شمال أفريقيا إلى الأندلس وإنشاء مملكة غرناطة ، وهو قسم يبدو فيه التركيز - أول وهلة - على تاريخ أجداده، فهذه الأحداث المسرودة تقوم بوظيفة كبرى في تحديد ملامح شخصية الكاتب وهويته. ومعلوم عند نقاد السيرة الذاتية أن بحث كاتب السيرة الذاتية في جذوره التاريخية واهتمامه بآبائه يتم عادة لتحقيق وظائف كثيرة مثل الاعتزاز بنسبه، وحب البحث في شجرة العائلة، ولاعتقاد الكاتب الراسخ في

(1) Roy Pascal. Design and Truth in Autobiography, (London; Routledge & Kegan Paul, 1960) P.5.

تأثير الوراثة^(١). لكن السبب الرئيس الذي جعل الأمير عبد الله يبحث في تاريخ أسلافه يكمن - في اعتقادنا - في رغبته في إعطاء القارئ صورة جيدة عن مدى معرفته بأحوال مملكته منذ إنشائها إلى أن تولى حكمها، وعن مدى اضطلاعها بأمور الحكم والسياسة منذ طفولته المبكرة عندما أخرجته جده من المدرسة وأجلسه إلى جانبه في قصر الحكم ليكتسب خبرة عملية - بالإضافة إلى الخبرة النظرية - في إدارة شؤون الدولة التي أهلته لتولي ولاية العهد لجده، ثم أخذ مقاليد الحكم بعد وفاته وهو لما يبلغ الثامنة عشرة، وذلك على الرغم من وجود من هم أكبر منه سناً في الأسرة الحاكمة^(٢).

وهذا لا يعني بالطبع أن الأمير عبد الله لا يهتم في سيرته بالعالم الخارجي الذي يحيط به من أناس وأحداث، ولكن اهتمامه بهذا العالم الخارجي يتحقق في أغلب الأحيان من خلال اهتمامه بعالمه الخاص هو، أي بتركيزه على تصوير البعد الخارجي لشخصيته. وعلى الرغم من أن "التيان" هو سيرة ذاتية سياسية (أي أن البعد السياسي في شخصية الكاتب يأخذ نصيباً أكبر من النصيب الذي تحظى به الأبعاد الأخرى في شخصيته)، إلا أننا نجد أن الكاتب قد نجح في التوفيق بين رسم

(1) Georges May. L., autobiographie, (Paris, Press Universitaires de France, 1979), P.130.

(٢) عبد الله بن بلقين. مذكرات الأمير عبد الله ؛ تحقيق ليفي بروفنسال - القاهرة : دار المعارف، ١٩٥٥م، ص ١٢، سترد الإشارات اللاحقة لبعض صفحات هذا الكتاب داخل النص. وقد حقق أمين الطيبي هذا الكتاب بعد أن كان قد ترجمه إلى الإنجليزية عام ١٩٨٦م، وصدرت الطبعة العربية بعنوان : كتاب التيان للأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء بني زيري بغرناطة ونشرتها مطابع منشورات عكاظ - الرباط، ١٩٩٥م.

البعدين الرئيسيين لشخصيته: الداخلي والخارجي، فالبعد الداخلي يتمثل في حرصه على تصوير انفعالاته ورغباته وعاداته وآرائه الأدبية و الدينية والفلسفية وحتى العلمية، أما البعد الخارجي فيتجلى في تصويره لعلاقاته - بوصفه أميراً - مع وزرائه وحاشيته و أهل مملكته وكذلك مع أمراء الطوائف الآخرين، ومع الفونسو السادس ، و مع المرابطين ،ومع يوسف بن تاشفين على وجه الخصوص.

وهناك مظهر سردي لافت للانتباه في السيرة ربما كانت له دلالة كبيرة في توضيح مدى حرص هذه السيرة على المساواة أو الموازنة في رسم هذين البعدين لشخصية الكاتب . فالقارئ يجد أن الأمير عبد الله يستخدم - غالباً - ضمير المفرد المتكلم "أنا" عندما يتحدث عن نفسه بوصفه إنساناً عادياً، أما عندما يتحدث عن نفسه بوصفه أميراً، فإنه غالباً ما يستخدم ضمير الجمع المتكلم أو ضمير العظمة "نحن".

٣ - دوافع الكتابة:

دوافع كتابة السيرة الذاتية عموماً كثيرة ومتنوعة، وغالباً ما تأتي متداخلة. ومن أبرز هذه الدوافع: التبرير، والاعتذار، والتعليل وطلب الشهرة، والتطهير، والرغبة في تعليم الآخرين، ومتعة استرجاع الماضي، ومحاولة إعطاء الحياة التي عاشها الكاتب معنى ما.. إلخ. وإذا ما بحثنا في "التبيان" عن هذه الدوافع فنسجد أنها متوافرة جميعاً (ولو بدرجات متفاوتة)، يضاف إليها الدافع التقليدي لكتابة السيرة الذاتية في أدبنا العربي القديم، وهو الرغبة في التحدث بنعمة الله "فنحن جديرون بتعداد نعم الله والإنصاف في شكره، كما حضَّ الله عليه في قوله لنبيه عليه السلام ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١) (ص ١٣). لكن الدافع الرئيس الذي يبدو

(١) سورة الضحى ، الآية : ١١ .

واضحاً ومسيطرأ في هذه السيرة هو رغبة الأمير عبد الله في تحليل بعض الأعمال الإشكالية والمثيرة للجدل التي قام بها في أثناء توليه حكم غرناطة، وفي محاولته تبريرها أحياناً والاعتذار عنها أحياناً أخرى.

ويبدو من قراءتنا لسيرة الأمير عبد الله أنه كان موضع نقد معاصريه واتهاماتهم، لا بل حتى موضوع التشفي، خصوصاً من خصومه الذين سرهم أن يروه في تلك الظروف الصعبة التي صار إليها: الخلع والنفي، فكتب سيرته هذه مستغلاً مقدرته الأدبية الفذة التي شهد له بها من قرأ سيرته من النقاد والمؤرخين قديماً وحديثاً، ليحقق بذلك عدة أهداف دفعة واحدة. أراد أن يشغل وقت فراغه في المنفى في أغمات، وأن يتخلص من مشاعر الإحباط و اليأس التي لازمته بعد تنحيته عن الحكم، وأن يروّض نفسه على قبول النهاية التي وصل إليها (أو القدر الذي حل به كما يقول).

وأهم من هذا كله، أراد أن يعتذر بطريقة تحفظ له ماء وجهه حياً وكرامته ميتاً عن بعض الأعمال المشهورة التي قام بها ، والقرارات القاتلة التي اتخذها في سبيل احتفاظه بملكه عندما كان أميراً لغرناطة، و هي أعمال كان معاصروه يعدونها - باعتراف الأمير - سبب سقوطه، مثل المعاهدات التي أبرمها مع الفونسو السادس عدو الإسلام و المسلمين في الأندلس، ومحاولة الوقوف لصد المرابطين عن مملكته وحرصه على جمع المال وحبه للحسان ومنادمتهم ... وغيرها من التهم التي وجهت إليه. لذلك فقد سعى جاهداً إلى دفع هذه التهم عن نفسه، أحياناً بتبيان (ومن هنا جاء عنوان السيرة) حقيقة هذه الأعمال والقرارات التي اتخذها، لا كما رآها معاصروه بل كما رآها هو، وأحياناً بتبرير بعض النتائج التي ترتبت على هذه الأعمال التي قام بها، وأحياناً أخرى بالاعتذار عن بعضها. وهو في هذا كله يتخذ

من قارئه (المحايد طبعاً) حكماً بينه وبين خصومه (أو حساده كما يسميهم) من معاصريه ومن سيأتي بعدهم. لذلك فالكاتب يكثر من استخدام الحوار بنوعيه الداخلي والخارجي (سنناقش ظاهرة الحوار لاحقاً) بغية التأثير في قارئه. فالحوار الداخلي الذي يمهّد له الكاتب عادة بقوله: "قلت في نفسي" أو "قلت" يوظف كثيراً من المواطن التي يسرد فيها الكاتب كيفية اتخاذ بعض القرارات الحاسمة التي كانت سبباً رئيساً لسقوطه، وذلك ليجعل قارئه يدرك الظروف و الملابسات التي حتمت عليه اتخاذ هذا القرار أو ذاك، وكأنني به يقول للقارئ: "ضع نفسك مكاني".. وهو بهذه الطريقة يحاول استدراج عطف القارئ، وكثيراً ما ينجح. والحقيقة أن من أهم الملامح التي تميز هذه السيرة الذاتية عن غيرها من السير الذاتية هو الحضور الواعي و الكبير للقارئ في ذهن المؤلف. ولعل من المناسب هنا أن نختم هذا الجزء من هذه القراءة بالاعتباس التالي الذي يتوجه فيه الأمير عبد الله بالحديث إلى قرائه: المنصف منهم والساخط على حد سواء. يقول للأول: "إنكم أنتم المخاطبون من الله ورسوله! فعليكم اعتمادنا، وإياكم خطابنا، ولكم تكلفنا!" ويقول للآخر: "اخسأ بجهلك، ومت بغيظك! فليست الأقدار جارية على اختيارك، ولا أنت المخاطب..." (ص ٢٠٠).

٤ - الحقيقة والاختلاق:

على الرغم من أننا - بوصفنا قراء - نتوقع أن تكون السيرة الذاتية من أكثر الفنون الأدبية إخباراً عن حقيقة حياة كاتبها، فالبحث عن الحقيقة المطلقة في أي سيرة ذاتية صعب جداً إن لم يكن مستحيلًا، و السبب في ذلك ربما يعود إلى أننا لا نملك مقياساً دقيقاً نقيس به حقيقة هذه السيرة الذاتية أو تلك، فلدى كل واحد منا مقياس خاص به، فبعضنا يرى مصداقية السيرة الذاتية تكمن في

شموليتها - فكلما كانت أشمل كانت أصدق - وبعضنا يرى مصداقيتها في كثرة اعترافات كاتبها بالجوانب المظلمة والسلبية في شخصيته، وهناك أيضاً من يرى أن هذه المصداقية تكمن في مدى اتفاق ما يرويهِ الكاتب من حياته مع ما يعرفه عنه معاصروه، أو مع ما ورد عنه في كتب التراجم والتاريخ المعاصرة له أو المتأخرة التي كتبت عنه.

هذه فقط بعض المقاييس المشهورة التي طبقها بعض دارسي السيرة الذاتية المهتمون بموضوع مصداقيتها، وإلا فإن قائمة المقاييس هذه يمكن أن تتضاعف وربما لا تنتهي، وكما نرى فكل مقياس يقودنا - بالضرورة - إلى نوع معين من الحقيقة، ولكنه لن يصل بنا - بالطبع - إلى "الحقيقة" .. ومع ذلك فإن سيرة الأمير عبد الله تلي قدرأ لا بأس به من هذه المعايير التي تقاس بها - عادة - مصداقية السيرة الذاتية والتي أشرنا إليها آنفاً. فمن ناحية الشمول، نجد أن هذه السيرة تروي قصة الكاتب منذ نشأته إلى تاريخ كتابته لها، مراعية - إلى حد بعيد - التدرج التاريخي، ليس هذا فقط، بل نجد أن الكاتب يقدم - كما رأينا - لسيرته بمقدمة طويلة يتحدث فيها عن جذوره.

لكننا ينبغي أن ندرك أن مسألة الشمول في السيرة الذاتية مسألة نسبية قد لا نتفق على تحديد معين لها، كما ينبغي أن ندرك - أيضاً - أن كاتب "التبيان" - شأنه في ذلك شأن أي كاتب سيرة ذاتية - كان لا بد له من أن يمارس أسلوب الاختيار والانتخاب للأحداث التي يرويها عن نفسه حسب الأهمية التي يعلقها بها.

ولم يكن بإمكانه سرد قصة حياته منذ ولادته إلى تاريخ كتابة سيرته؛ لأن ذلك يحتاج - عملياً - إلى زمن يساوي أضعاف الزمن الحقيقي الذي عاشه، ولكن، لنا أن

نتساءل، هل كانت هناك معايير معينة حكمت اختيار الأمير عبد الله لسرد أحداث وتجارب معينة في حياته دون غيرها؟ إن قارئ هذه السيرة لن يقف طويلاً لكي يحصل على إجابة عن هذا السؤال في السيرة نفسها.. فالأمير عبد الله قد نبه القارئ منذ البداية إلى أنه لن يروي كل شيء في حياته وخاصة تلك "الأحداث المشهورة و المعروفة"، وإنما سيركز على أحداث وتجارب بعينها، رأى أنها كانت عند الآخرين غامضة أو غير مفهومة "اللهم إلا أن يكون [ما يرويه] يؤدي إلى القيام بحجة صاحبه والاعتذار عنه من أمر قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة، فنطق هذراً، وساعد عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً، وطعنوا على غائب أو ميت لم يُحرّ الجواب عن نفسه، أو ذليلاً لم ينتصر لعرضه" (ص ٢). أو على أحداث أخرى تبين عنه "حذقاً و معرفة تذكر عنه وتشر بعده، فإن ذلك من أؤكد ما يجب عليه السعي فيه وإعمال ذهنه وحواسه في تلخيصه، إن أعانه على ذلك اغتباط بجميل الشاء، وأنفة لسوء المقال، ونشاط على ترفيع الذكر". (ص ٢-٣).

وذلك لأن الكاتب رأى أن معاصريه قد أهملوا رواية الجوانب المشرقة في حياته ، وركزوا على الجوانب المظلمة، فلم يجد بداً من أن يركز على رواية هذه الجوانب المشرقة والتي تتمثل في الإصلاحات التي قام بها في مملكته، والعدل الذي أقامه بين رعاياها، واشتراكه مع المرابطين في معركة الزلاقة المشهورة ضد النصاري، والتضحية التي قام بها أخيراً عندما سلم مملكته ليوسف بن تاشفين، وقد كان بإمكانه - كما يقول - أن يحتفظ بها لو أن تهمة تواطئه مع الفونسو السادس ضد المسلمين كانت حقيقة، كما زعم خصومه (ص: ١٢٩، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٣).

أما فيما يتعلق بالبعد الاعترافي في "التبيان" فسيجد القارئ أنه يحتوي على قدر لا بأس به من الاعترافات التي يدلي بها الأمير عبد الله بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، قل أن نجد لها نظيراً فيما كتب من سير ذاتية في نثرنا العربي القديم. فهو يعترف - على سبيل المثال - بأنه كان جزعاً شديداً خوف ينهار عند أدنى محنة يتعرض لها "لاسيما أن الجزع والسوداء متمكنة من نفسي، وأجدها في طباعي" (ص ١١٤، وانظر أيضاً: ص ١٢١، ١٥٥). وهو بهذا يؤكد تهمة الجبن التي اتهمه بها بعض المؤرخين (ص ٢٠٨-٢٠٩) ويعترف أيضاً بأن وزيره (سماجة) كان أغرقه في الملذات والملاهي، مستغلاً صغر سنه في بداية حكمه (ص ٨٥)، وكذلك نجده يعترف بتهمة أخرى وجهها إليه خصومه وبعض المؤرخين وهي أن قصره كان يحتوي على اللهو، ولو أنه كان ينفي أن يكون هذا الأمر بهدف المتعة الحسية، كما صور ذلك خصومه، بل بهدف الأبهة والمنظر "فإن الدول الكبار لم يزل فيها الغلمان وأبناء الصنائع صفاراً وكباراً، عبيداً وأحراراً، وهم بين يدي الرئيس جمال، على خدمته أعوان.. وهل الملك والمال إلا للترزين والتجمل، وانتخاب الحسان منهم تليق بهم الكسوة السنية والمراكب الفارهة؟" (ص ٢٠٣).

ومن اللافت للانتباه أن الأمير عبد الله يعترف أيضاً بعبادات والده (بلقين) في الشراب الذي كان سبباً مباشراً لمقتله مسموماً على يد يوسف بن النفرالة اليهودي "لأن أبانا كان كثير الشرب معه (اليهودي) و التكرار عليه في منزله (ص ٤٠). كما يعترف أيضاً بأنه كان يتعاطى الشراب قبل أن يتوب الله عليه منها (ص ٢٠٢).

ونراه أيضاً يعترف بأنه شيد الأسوار وأعد العدة لمقاومة المرابطين عندما حاصروه، ولكن ليس لأنه كان متواطئاً مع الفونسو النصراني ضدهم، أو كان يريد

صدهم عن الجهاد - كما ذكر خصومه - بل لأنه كان يريد "الاحتياط على مهجتي والتحصن على نفسي" وذلك لأنه يرى أنه لم يقترب ذنباً يبرر خلعه "لم أنوبه [يوسف بن تاشفين] سوءاً ولا واسيت عليه أحداً ، ولا صددته عن جهده، فبأي شيء يتسبب إليّ إلا أن شاء التذنب مع القدرة؟ فلا طاقة لي بذلك" (ص ١٢١).

وهناك اعترافات أخرى لا مجال لذكرها هنا خوف الإطالة، وأعتقد أن السبب الذي أدى إلى ظهور هذه النزعة الاعترافية القوية في سيرة الأمير عبد الله يكمن في الأسلوب الذي اتخذته للرد على التهم التي وجهت إليه ، إذ لم يلجأ إلى نفيها جملة وتفصيلاً، ربما لأنه لم يكن قادراً على ذلك، بل اعترف بها، لكنه سعى جاهداً - كما رأينا - إلى تبريرها عن طريق نفي البعد التجريمي فيها كما رواها خصومه، والتركيز في المقابل - على تصوير صحة مقصده وسلامة نيته في أكثرها.

أما فيما يتعلق بمدى اتفاق ما رواه الأمير عبد الله عن نفسه في سيرته مقارنة بما رواه الآخرون عنه، فيكفي أن نقرر هنا أن سيرة الأمير عبد الله - كأبي سيرة ذاتية - لا تعكس إلا حقيقة شخصيته ولا تصور إلا حياته هو، لا كما رآها الآخرون بل كما رآها هو، وإلا لما كتب هذه السيرة أصلاً؛ لأننا نعلم أن من أهم الأسباب التي دعت إلى كتابة سيرته كان - كما رأينا - رغبته في تغيير أو تحسين الصورة التي صور بها في عقول الآخرين وكتبهم.

بقي أن نشير هنا إلى ظاهرتين أسلوبيتين لافتتين للانتباه في سيرة الأمير عبدالله تجعلان من مشقة البحث عن الحقيقة التاريخية فيها مشقة مضاعفة، هاتان الظاهرتان هما: ظاهرة الحوار، وظاهرة الاقتباس والتضمين (أو التناص كما يحلو لبعض النقاد تسميتها) ، وهما ظاهرتان تشكلان في هذه السيرة أبرز ملامح

"الاختلاق". والاختلاق هنا لا يعني - بالضرورة - "الكذب الصريح المتعمد" من الأمير عبد الله، ولكنه يشير ببساطة إلى بعض التقنيات السردية والأدبية التي يستعين بها كاتب السيرة الذاتية في سرد قصة حياته، والتي تجعل من مهمة القارئ في التحقق من مصداقية الأحداث والتجارب التي تروى عبرها مهمة بالغة الصعوبة، بل مهمة مستحيلة.

ففيما يتعلق بالحوار، نجد أن الأمير عبد الله لا يروي قصة حياته باستخدام السرد الكرونولوجي العادي، بل يمزج بين السرد والحوار مزجاً محكماً يصعب على القارئ الفصل بينهما، ولعل أفضل مصطلح وقفت عليه يصف طبيعة الحوار المستخدم في سيرة الأمير عبد الله هو "الحوار السردى" الذي أشار إليه نجيب العوفي^(١) حيث ينقل الحوار إلينا بطريقة غير مباشرة عبر صوت الراوي/ الأمير، الذي يسيطر سيطرة عامة على كل من السرد والحوار، وفي هذا النوع من الحوار نجد أن سلطة السرد تغلو بحيث تصبح الجمل أو المقاطع الحوارية خاضعة للجمل السردية ومضمنة فيها. ويكون هذا الحوار مروياً ومسترجعاً، وأحياناً متخيلاً. فأما كون الحوار مروياً فلأننا لا نجد وجوداً فعلياً للشخصية المحاورة، فهي دائماً مغيبة، وحوارها لا يصدر عنها بل يصدر عن الراوي/ الأمير، نيابة عنها لذلك فإن لغة الحوار لا تختلف إطلاقاً عن لغة السرد لأنهما للراوي/ الأمير.

وأما كونه مسترجعاً، فإن الكاتب غالباً ما ينقل إلينا حواراً أو أصداً حوار حدث في الماضي. وأما كونه - أحياناً - متخيلاً؛ فلأن الكاتب هو الذي يفترض أو

(١) نجيب العوفي. مقارنة المواقع في القصة القصيرة المغربية - بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧م، ص ٥١٦ - ٥١٨.

يتخيل صدور مثل هذا الحوار عن الشخصيات في الماضي أو في المستقبل، كما في الأمثلة التالية: "ولو أن عند إقبال الرومي (الفونسو) يقول لنا "... (ص ١٥٣). أو "فأدرك الرومي من ذلك طمع كبير وقال "... (ص ٧٢)، أو "وقال في نفسه..." (ص ١١١).

وافترض الحوار أو تخيله يتضح كثيراً في المواطن الكثيرة التي يستخدم فيها الأمير عبد الله الحوار الداخلي (الحوار مع نفسه) الذي يُقدم له الأمير عادة بـ "قلت في نفسي..." أو "قلت".

أما فيما يتعلق بالاقتباس والتضمنين، فسيرة الأمير عبد الله تحتوي على عدد كبير من النصوص القرآنية والحديثية والشعرية والمثلية وغيرها من النصوص التراثية العربية الإسلامية. والملاحظ أن أغلب هذه التضمنينات والاقتباسات قد وردت في هذه السيرة بطريقة تعمدتها الأمير عبد الله ووعاها.

والسؤال الذي ينبغي أن يُطرح هنا، لماذا لجأ الأمير عبد الله في كتابة سيرته إلى هذا الأسلوب الحواري أو إلى "الحوار السردى". ولماذا أكثر من توظيف أسلوب التضمنين و الاقتباس؟

وفي سبيل الإجابة عن هذا السؤال يجدر بنا أن نشير إلى فقرات مهمة وردت في سيرة الأمير نرى أنها تتضمن تبريراً يقدمه المؤلف لانتهاجه هذا الأسلوب في التأليف، فهو يقول في معرض حديثه عن منهجه في كتابة سيرته ما يلي: "وأرى أن مساق الحديث في التأليف بعضه لبعض أحسن خطأً وأفضل نظاماً من تقطيعه، ولهذا نريد إirاده كالحديث" ص ٣. ويقول في موطن آخر: "والحديث ذو شجون، فلا بد من ذكر جمل من غيرها (مملكته) عند الحاجة على وصفه أو ضرب مثل به، تزييناً للكلام وإقامة للبرهان ودورنا على الحقيقة" (ص ٨٣).

ففي الفقرة الأولى نجد أن المؤلف يشير بوضوح إلى أنه سيروي حياته على شكل حديث، ومعلوم أن الكلام لا يتخذ صفة الحديث أو المحادثة إلا إذا توافر له متحدث ومستمع، فالمتحدث هو الأمير والمستمع هو القارئ، أما لماذا اختار الكاتب إيراد كلامه حديثاً وليس كتابة (أو بأسلوب المتحدث وليس بأسلوب الكاتب) فلأنه - في اعتقادي - قد أدرك أن قارئه سيكون أكثر اطمئناناً لمصداقية ما يرويه عن نفسه لأن الحديث - عادة - لا يسهل فيه التصنع والتكلف، بل يتحدث المرء - غالباً - على سجيته بصدق وعفوية، وذلك على العكس من الكلام المكتوب الذي يكثر فيه التصنع والتكلف والتميق والتزوير. وفي الحقيقة، فإن الأمير عبد الله قد أراد - باستخدامه هذا الأسلوب الحواري - أن يمارس أقوى تأثير ممكن في الحكم الذي سيتخذه قارئه بعد أن يستمع إلى كل الأصوات المتحورة في هذه السيرة والتي تصل إليه - طبعاً - عبر صوت الراوي/ الأمير.

أما الفقرة الثانية فترينا بوضوح أن الأمير عبد الله أراد - بإكثاره من توظيف التضمين والاقتباس - تزيين كلامه وتوشيته وترصيعه وتقويته ، وهو في هذا يساير الذوق الأدبي الذي كان شائعاً في عصره. وأراد أيضاً أن يجد - أو يوجد - في التراث العربي والإسلامي ما يقوي حجته ويكون له متكأ دينياً أو تاريخياً يعتمد عليه في تبرير مواقفه وقراراته المثيرة للجدل.

ولعل النصين التاليين اللذين يوظف الكاتب فيهما هذا الأسلوب يوضحان ما ذهبنا إليه، فلنستمع إليه أولاً وهو يبرر سياسته الاستبدادية في اتخاذ القرار دون مشاورة. "وكنا لا نقدم شيئاً ولا نؤخره من هذه الأمور إلا بعد رؤية وفكرة في العاقبة، وندع مشورة الناس، فإننا بلونا منهم قلة التحقيق والنطق على الهوى، فإما مفتون

بأمر يزينه ويحمل عليه، و إما كاره للخير أو مطالب لأحد، فيجعلنا نحير عما لا يطابق هواه، ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(١)، وأن كل أحد يحب أن تجري الأحكام على اختياره، رجعنا إلى إثارة اختيارنا، إذ كان نظرنا لأنفسنا أرشد من نظر غيرنا، "وما حك جلدك مثل ظفرك" (ص ٩٩).

ولنستمع إليه و هو يبرر تجديده عقد صلح مع الفونسو: "ورأيت مع ذلك أن أجدد معه عقداً ألا يعترض لي بلداً ولا يغدرني بعدها، خوفاً من أن يقتلب عليّ فأجاب إلى العقد... والحرب خدعة، "وإذا لم تغلب فاخلب" (ص ١٢٥).

وإذا كنا قد تحدثنا هنا عن شكلين من أشكال الاختلاق التي وظفها الأمير عبد الله في سيرته؛ فإن هناك أشكالاً أخرى لم نتحدث عنها خوف الإطالة ، مثل توظيف الرسائل والأحلام وغيرهما.. وأشكال الاختلاق هذه هي السبب الرئيس - في رأينا - الذي جعل من نص سيرة الأمير عبد الله - كما يقول هارفي L.P. Harvey - نصاً "شفرياً" encoded كثيراً ما يحوم الكاتب فيه - وهو يتحدث عن التهم التي وجهت إليه، والمواقف الصعبة التي تعرض لها - حول الموضوع دون أن يدخل في صميمه^(٢).

وأخيراً لكي نقيّم الحقيقة في السيرة الذاتية عامة وفي سيرة الأمير عبد الله خاصة، ينبغي علينا أن نفرق بين نوعين من الحقيقة: الحقيقة الذاتية والحقيقة الموضوعية، أو ما يسميه بسكال Pascal الحقيقة التاريخية والحقيقة الشخصية^(٣)

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٧١ .

(٢) انظر مراجعة هارفي للترجمة الإنجليزية "للبيان" في مجلة:

Journal of The Royal Asiatic Society. No.2 (1987) P.323.

(3) Pascal. P. 67.

(أي حقيقة مشاعر الكاتب). وبالتالي يمكننا أن نطمئن إلى وجود الحقيقة التاريخية طالما أنها تتفق مع الحقيقة الشخصية، أما إذا اختلفت معها فإن الكاتب - غالباً - ما يضحى بها، لذلك فالمؤرخون وكتّاب التراجم - ربما لن يسلموا بكل ما رواه الأمير عبد الله عن نفسه وسيعتمدون دائماً على مصادر خارجية أخرى حوله، أما نقاد الأدب ودارسوه فسوف يقتنعون - فيما أرى - بحقيقة مشاعر الكاتب، وسيجدون علامات كافية في نص "التبيان" نفسه تمكنهم من الحكم على مصداقية محتواه، كما سيتمكنون من الوقوف على مواطن الاختلاق والتبديل والكتمان فيه. فمثلاً، عندما يقرأ القارئ هذه العبارة في "التبيان" "وصح ذلك عندي" (ص ١٣٥)، وأمثالها. فإنه سيكتشف - بالطبع - ضعف مصداقية الكاتب فيما سيرويه لاحقاً، ومن المفارقات العجيبة "أن الاختلاقات في السيرة الذاتية تخبرنا في بعض الأحيان عن شخصية كاتبها الحقيقية أكثر مما تخبرنا به الحقيقة البسيطة في كل كلمة، يقول أحد نقاد السيرة الذاتية : "حتى أذكى الكاذبين لن يستطيع أن يخدعنا بحقيقة شخصيته من خلال قصصه المختلقة أو المزخرفة حول نفسه، وسوف يفضح هذه الحقيقة من خلال أكاذيبه"^(١).

(1) George Mish A History of Autobiography, (London: 1950), I: P. 11.